لقد توسعت الطبقة العاملة العربية في فلسطين واشتد ساعدها وكبر حجمها نتيجة عوامل عدة مختلفة، كان أهمها التطور الاقتصادي الذي أحدثه الاحتلال البريطاني، إلا أن هذه الطبقة بقيت، من الناحية العملية، دون حزب سياسي أو طليعة ثورية عربية حتى أواخر العشرينات؛ فهل يعني ذلك أن هذه الطبقة لم تكن موجودة حتى ذلك الحين؟ ان الجواب الحاسم والسريع على ذلك هو ان هذه الطبقة كانت موجودة فعلاً، وفي الوقت نفسه الذي قام فيه الثوريون اليهود بدور الطليعة السياسية لها من خلال تبنيهم والتزامهم، بشكل واضح لشعاراتها؛ هذا التبني الذي برز، بشكل خاص، في الجوانب الاقتصادية والطبقية، من خلال دفاعهم عنها بكل قوة. بل حتى، أنهم بذلوا الجهود في سبيل خلق الطليعة الثورية العربية ودفعها للانضمام إلى الحزب السياسي الذي تحول إلى حزب الطبقة العاملة في فلسطين. ومن ثم عملوا على تحويل الأكثرية في داخله إلى أكثرية عربية ليكون ممثلا لحركة التحرر الوطني في فلسطين التي كانت الجماهير العربية الكادحة مادتها الأساسية، ومتطلبات هذه الجماهير شعاراتها الحقيقية.

إن ظهور الطبقة العاملة العربية في فلسطين إلى حيز الوجود ومباشرتها لمهامها التاريخية المتمثلة في الدفاع عن نفسها أمام العدو الاقتصادي الاجتماعي المتمثل بالرأسماليين والاقطاعيين، على اختلاف قومياتهم، والمساهمة بأشكال متعددة ونسب مختلفة في المعركة القومية الوطنية ضد الاحتلال البريطاني الكولونيالي وضد الأطماع الصهيونية الاستيطانية، ومن ثم تشكيل منظماتها السياسية والنقابية وتطور هذه المنظمات ونموها؛ هذا كله، كان يتطلب أكثر من عامل واحد. وقد تم هذا، فعلاً، عبر مجموعة متعددة من العوامل الذاتية والموضوعية التي لا بد من تناولها بالتفصيل رغم إشارتنا لبعضها أعلاه.

الاحتلال البريطاني والتغيرات المختلفة في بنية المجتمع الفلسطيني

كان لا بد للاستعمار البريطاني، تماماً كغيره من القوى الاستعمارية التي ابتليت بها الشعوب العربية في تلك الفترة، من أن يمهد لبسط سيطرته وتثبيتها على المناطق التي احتلها، ولتعزيز نفوذه العسكري فيها. ولم يكن ذلك ليتم دون إجراء مجموعة من التغيرات الجذرية التي تمكنه من تحقيق مهمته. ولكن هذه التغيرات كانت تؤدي، في الوقت نفسه، إلى إحداث تطورات هامة في قلب تلك المجتمعات. ولم تكن هذه الظاهرة مقتصرة على فلسطين وحدها، بل كانت ظاهرة عامة في كافة الدول الشبيهة بها؛ فنتيجة لسيطرة الدول الاستعمارية، تميزت بداية القرن العشرين بالامتداد الواسع للعلاقات الاقتصادية المتميزة بتبادل البضائع بواسطة النقد. وأدى هذا إلى انهيار الاقتصاد التقليدي المتميز بالأسواق القروية المغلقة على نفسها، وبدلاً من هذه الأسواق، ظهرت الأسواق الداخلية كنتيجة طبيعية للتخصص في الزراعة وبداية عملية التصدير إلى الخارج. وقد حدث هذا، فعلاً، في فلسطين بعد الاحتلال. وفي فلسطين أيضاً، ونتيجة لتشجيع سلطات الانتداب البريطاني للتصنيع، وبشكل خاص للمستثمرين اليهود، ظهرت